

بين البلاغة والأسلوبية

د. عثمانى عبد المالك

جامعة بشار

مقدمة:

إن مجال البلاغة الجديدة (الأسلوبية) و الفوائد الجمّة التي يمكن جنيها من وراء تطبيقاتها على الخطاب الأدبي و غيره من الخطابات من جميع الجوانب، جعلها تقتطب جميع مستويات التحليل البلاغي، و بالتالي أصبح دور البلاغة هامشيا.

إن بقاء البلاغة العربية ضمن حدود ضيقة، و عدم قدرتها الإجابة عن العديد من الإشكالات المعرفية، جعل من البلاغة الجديدة (الأسلوبية) لما تنسم به من الشمولية البديل المؤهل.⁷¹

إن دراسة بنيات العمل الفني للأعمال الإبداعية غير متاح إلا في البلاغة الجديدة، و ذلك لأن البلاغة القديمة لم تتعد تلك الجزئيات القديمة و التي أرهقت مصطلحات البلاغيين.⁷²

تحدث تودوروف عن قصور مجال البلاغة عندما اعتبر أنها قد أهملت الجانب النفعي المباشر. كما أنها لم تعد تدرس كيف يكون الإقناع، و اكتفت بصياغة الخطاب الجميل، فأدى بها إلى التخلي عن الخطاب السياسي، و القضائي إلى آخره، و لم يبق لها إلا الأدب ميدانا تعمل فيه. ثم تقلص مجال اهتمامها حتى انحصر في حدود خصائص التعبير اللغوي للنص.⁷³

لقد أخذت البلاغة الجديدة، معززة باللسانيات تكتسح جميع ميادين الخطاب (الأدبي، السياسي...)، و حاولت البلاغة القديمة منافستها في بدية الأمر، غير أنها انتهت إلى الانسحاب، لتفسح المجال أمام البديل (الأسلوبية).

سأحاول في بادئ الأمر أن أعرف بإيجاز بين مفاهيم قد تتداخل فيما بينها، وذلك قبل أن أقارن بشكل بسيط و مختصر بين البلاغة و الأسلوبية:

أ - الفصاحة: الظهور و البيان، تقول أفصح الصبح إذا ظهر. والكلام الفصيح ما كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك. ولهذا وجب أن تكون كل كلمة فيه جارية على القياس، ومنه قول "المتنبي":

فلا يبرم الأمر الذي هو حال ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم

فهذا الكلام غير فصيح لأنه اشتمل على كلمتين غير جاريتين على القياس الصرفي و هما: حال و يحلل ، فإن القياس حال و يحل (بالإدغام).

كما يشترط أن تكون الكلمة كذلك مألوفة الاستعمال بين الناطقين من الكتاب و الشعراء، لأنها لم تتداولها ألسنتهم، ولم تجر بها أقلامهم، إلا لمكانها من الحسن باستكمال جميع ما تقدم من نعوت الجودة و صفات الجمال.⁷⁴

و الذوق السليم هو الكفيل بمعرفة حسن الكلمات و سلاستها، وتمييز ما فيها من وجوه البشاعة و مظاهر الاستكراه، لأن الألفاظ أصوات ، فالذي يطرب لصوت البلبل، و ينفر من صوت البوم و الغربان، ينبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة متنافرة الحروف (ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم المكتسب بالنظر في كلام البلغاء، وممارسة أساليبهم). انظر: كتاب البلاغة الواضحة مع دليها لـ "علي الجارم و مصطفى أمين" (المقدمة).

ب - البلاغة: تأدية المعنى الجليل، واضحا بعبارات فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، و الأشخاص الذين يخاطبون. فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري، و دقة إدراك الجمال، وتبين الفروق الفردية الخفية بين صنوف الأساليب. و للمران يد لا تجحد في تكوين الذوق الفني، و تنشيط المواهب الفاترة، ولا بد للطالب إلى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب، و نقد الآثار الأدبية و الموازنة بينها، و أن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه إلى الحكم بحسن ما يراه حسنا، و يقيح ما يعده قبحا.⁷⁵

و ليس هناك من فرق بين البليغ و الرسام إلا أن هذا يتناول المسموع من الكلام، وذلك يشاكل بين المرئي من الألوان و الأشكال، أما في غير ذلك فهما سواء، فالرسام إذا هم يرسم صورة فكر في الألوان الملائمة لها، ثم في تأليف هذه الألوان بحيث تختلب الأبصار، وتثير الوجدان،

والبليغ إذا أراد أن ينشيء قصيدة أو مقالة أو خطبة فكر في أجزائها، ثم دعا إليه من الألفاظ والأساليب أخفها على السمع، وأكثرها اغتصالا بموضوعه، ثم أقواها أثرا في نفوس سامعيه وأروعها جمالا.

أما "الجاحظ"، فيحدث عن البلاغة قائلا: «لا يكون الكلام بمستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، فلا يكون لفظه على سمعك أسبق من معناه إلى قلبك».

ثانيا: الأسلوبية:

ويعرفها "شارل بالي" مؤسس علم الأسلوب بأنه علم يعنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة، والمعبرة عن جملة لا يستهان بها من العواطف والأحاسيس. و لذلك كان التعريف بعلم الأسلوب منحصرا في الجانب الوجداني، ومهملا لجوانب أخرى هامة في لغة التعبير (الأسلوب).

أما "ريفاتير"، فيعرف هذا العلم بقوله: «هو علم يعنى بدراسة الآثار الأدبية دراسة موضوعية: وهي لذلك تعنى بالبحث عن الأسس القارة في إرساء علم الأسلوب خاصة.⁷⁶ كما أوضح الباحث نفسه في مؤلفه "في الأسلوبية البنائية" والذي صدر له عام 1971م على أن الأسلوب هو السمة أي العلامة المميزة للقول، داخل حدود الخطاب... وأن البنية النوعية للنص هي نفسها أسلوبه، فاللغة عنده تعبر، ولكن الأسلوب يبرز، ولذلك يدرس الأسلوب من خلال ما يخلفه من أثر على المتلقي (سامعا أو قارئا). انظر: "كتاب البلاغة الواضحة مع دليلها" لـ علي الجارم ومصطفى أمين (المقدمة).

إن غاية الأسلوبية هو الأسلوب، وبما أن كلمة أسلوب تشير إلى الكلام في اللحظة نفسها التي ترمز فيها إلى الفكر، فإنها تؤخذ إلى جانب مفاهيم أخرى تجيء ثنائية عادة، ومنها: اللغة والكلام، الفحوى والمعنى، التوصيل والتعبير، الموضوعي والذاتي، الفردي والجماعي، المادة والفكر، التعدد والوحدة...⁷⁷

غير أننا نحتاج إلى تركيب كليهما لتعريفه في وظيفة اللغة الرمزية والتعبير الواقعي لهذه الوظيفة يؤديه متكلم محدد، وهو مندمج تاريخيا في اللغة، يعبر عن نفسه بكل حرية،

ويحقق أسلوبها ذاتيا. والناقد يجب أن يركز في هذا الأسلوب على البناء الرمزي المستقل ذاتيا، وقد خلق قيما لم تكن موجودة من قبل، و الجديد في الأسلوب نسبي، لأن جذوره تضرب في واقع الدوافع والنماذج و الظروف التي سبقت العمل نفسه، و لكن مهما تكن النسبية فهي دائما جديدة لأن تذكر العناصر كان حرا.⁷⁸

لقد ميز "دي سوسير" بين اللغة كنظام من الرموز له قيمة، اصطاحت عليه جماعة من الناس لكي تستطيع التفاهم فيما بينها، و بين الكلام، و هو الاستخدام الخاص الفردي والخاص لهذه اللغة، و علم اللغة يدرس اللغة، ويمكن أن يدرسها أسلوبيا إذا لاحظ عناصرها غير المنطقية. يقول "شارل بالي":

«تدرس الأسلوبية اللغة من وجهة نظر محتواها المؤثر، و الذي يبلغ مقصده» و هي بذلك قد تتشابه مع البلاغة عند العرب: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع.. ويعرفها أبو هلال العسكري في مؤلفه الصنائع البلاغة ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة، و معرض حسن..⁷⁹

أوجه التشابه والتباين بين البلاغة في التراث العربي والبلاغة الجديدة

(الأسلوبية):

أولا: أوجه التشابه:

- 1 - موضوع البحث عند كليهما هو الأدب ، فكلاهما تبحثان في الجوانب التعبيرية و الفنية التي يتضمنها الخطاب الأدبي ، و هما أيضا لا تهملان الجوانب النفسية. مع اتساع مجال الأسلوبية في تناول الخطاب السياسي و القضائي...
- 2 - من حيث النشأة ، فكلاهما منشأه علم اللغة (اللسانيات).
- 3 - التركيز أثناء التحليل على العلاقات السياقية و الإيحائية في النصوص الأدبية..

ثانياً: أوجه القياس:

- 1- تتعامل الأسلوبية مع النص بعد ولادته - أما البلاغة، فهي موجودة قبله في شكل قواعد و ضوابط و قوانين..
- 2- الأسلوبية توضح الأسلوب أو كيفيات التعبير، ولكنها لا تصدر حكماً، أما البلاغة فإنها تنظر إلى مدى مطابقة العمل الأدبي مع القوانين و القواعد.
- 3- المتلقي له حضور فعال في بناء العمل الأدبي، أما في الأسلوبية، فإن حضوره ضروري لأنه الحكم الأخير (الدوق).

